

## صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح

د.بثينة زهيره \*

(تاريخ الإيداع ٢٠٢٥/٧/١٤ . قَبْلُ لِلنَّشْرِ فِي ٢٠٢٥/٨/١٨)

□ ملخّص □

يتغيّر البحث المقدم الوقوف على دلالات صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح؛ الشاعر الأمويّ المولى العبد الأسود، فالصورة هي المساحة الخاصة التي يفرد فيها عقل الشاعر أفكاره وتصورات، وهي مطيّة للتفنّن في إبداع لغة شعرية خاصة به، وما قد يضيف على هذه اللغة من الحسن والجمال.

تحتزن صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح كثيراً من الانفعالات النفسية والتصورات الذهنية للشاعر، بوصفها إحدى صور الطبيعة والحيوان التي شكّل حضورها تقليداً مهماً من تقاليد الشعر العربي على مرّ العصور، غير أنّ تلك الصورة لدى نُصيب تخرج من كونها تقليداً شعرياً فحسب، لترسم حدود تجربته الذاتية، وتمسي وسيلته في التعبير عن أحاسيسه وعواطفه السامية، وسبيله إلى الإفصاح عن لواعجه وتطلعاته نحو الأنثى، وكثيراً ما كان البعد النفسي المقرون بنوح الحمامة في شعره تعبيراً صادقاً عن آلامه وأحزانه انطلاقاً من فسحة الحزن التي شاع أنّ الحمام يتقلدها بسبب فقدانه قرينه منذ عهد نوح ( عليه السلام).

وعلى الرغم من توافر الحديث عن نُصيب بن رباح، وخصوصية تجربته في المجتمع الأمويّ، لم يتمّ العثور من بين هذه الدراسات على قراءة تُعنى بالحديث عن صورة طير الحمام في شعره، ليسعى البحث وهنا إلى أن يقف على حضور هذه الصورة مستعيناً بالمنهج الوصفيّ في الدراسة والتحليل.

**الكلمات المفتاحية :** الصورة، طير الحمام، نُصيب بن رباح.

\* دكتوراه في الدراسات الأدبية ، اختصاص الأدب الأموي ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة اللاذقية ، اللاذقية سوريا

## The Image of the Dove in the Poetry of Nusayb Ibn Rabah

**Dr.Bouthina Zhira\***

(Received 14/7 /2025. 18 /8/2025)

□ ABSTRACT □

:

This presented research aims to explore the symbolic significance of the image of the dove in the poetry of Nusayb Ibn Rabah , the Umayyad-era poet and freed slave, so, the poetic image serves as the special space where the poet's mind weaves its thoughts and visions a vehicle through which he crafts a unique poetic language, imbued with charm and gracefulness.

In Nusayb's verse, the image of the dove carries a lot of emotional and intellectual resonances. As a figure rooted in nature and in the poetic tradition of depicting animals, the dove has long held a central place in classical Arabic poetry throughout the ages. Yet, in Nusayb's work, this image transcends conventional literary usage. It becomes a mirror of his personal experience, a means to articulate his elevated emotions and subtle sentiments, and a way through which he reveals his longing and passion for the beloved. The psychological dimension often entwined with the dove's plaintive cooing that serves as a sincere expression of the poet's sorrow and suffering. This emotional tone echoes the traditional association of the dove with mourning, a symbolism believed to have originated from the bird's eternal lament for its lost mate since the time of Noah [peace be upon him].

Although considerable attention has been given to Nusayb Ibn Rabah and his distinctive position within Umayyad society, no reading has found among all these studies to deal with the image of the dove in his poetry. Therefore, this research seeks to fill the gap, relying on a descriptive methodology for both analysis and interpretation

**Keywords :** poetic image, dove, Nusayb Ibn Rabah

---

\*PHD in literary studies , Umayyad literature specialization , Department of Arabic language , faculty of literatures, university of Lattakia , Lattakia. Syria.

## مقدمة

تشكل الصورة الشعرية في العمل الأدبي إطاراً لغوياً يتسلل القارئ من خلاله إلى أغوار الشاعر، ومكنوناته، فالصورة هي الأداة الأكثر فاعلية والأنجع والتي تستوي مقابلاً للتعبير المباشر، تستمد أهميتها من قدرتها على الإيحاء، وعلى تكثيف طاقات المبدع، وقدراته التخيلية. علماً أنّ الصورة لم تعد تتوسل بالمجاز وحسب للتعبير عن رؤى الشاعر وتصوراته، بل إنّ من شأن الكلمات والتراكيب التي تنتظم في صياغة سياقية جديدة أن تسهم في ارتقاء لغة الشاعر إلى الشعرية التي هي مجلى الأدبية في النص عموماً.

وصورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح مساحةً فنيةً استطاع الشاعر أن ينفذ منها لتفصح عن نوازه الداخلي، وتُعبّر عن تجربته الخاصة، لذا، فإنّ المتتبع لتجليات تلك الصورة في شعره، يلفي حفاظه على المعاني التي شاعت من ذكر ذلك الطير في التقاليد الشعرية، وهو ما ينمُّ على تجربةٍ شعريةٍ بسيطةٍ لم يجترح الشاعر فيها أفقاً جديداً في تصويره لطير الحمام.

### أهمية البحث وأهدافه :

تتأني أهمية البحث من كونه يخصّ قراءة صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح بدراسة مستقلة. فالشاعر من الشعراء الموالى الذين درج النقاد والدارسون على الحديث عن تجربتهم المتقرّدة التي تمتلك خصوصية في أدبنا العربي، ولقّما نجد دراسةً تتصل بموضوعات شعر الموالى ولم تذكر الشاعر نُصيب، غير أنه لا نستطيع أن نعثر على دراسة تختص بالوقوف على تجليات حضور طير الحمام في شعره، علماً أنها صورةٌ يتواتر ذكرها مراراً في شعره، الأمر الذي دفع البحث إلى الوقوف على صورة ذلك الطير ومحاولة استنباط دلالاتها.

### منهجية البحث :

يفيد البحث من معطيات المنهج الوصفي الذي يقوم على الملاحظة والتحليل والاستنباط بهدف الوصول إلى استنتاجات لعلها تحقّق الجديد في شعر نُصيب، وتفلح في القبض على دلالات حضور طير الحمام لدى الشاعر بموضوعية ومنهجية.

### مفهوم الصورة في البحث :

الصورة الشعرية هي إحدى الدعائم الرئيسية التي يقوم عليها البناء الشعري، بفضل قدرتها على حشد طاقات المبدع وقدراته التخيلية، وبفعل امتلاكها عناصر جذب للمتلقي، فالتأثير فيه، انطلاقاً ممّا تزخر به من عواطف وأحاسيس ألبسها المبدع أفكاره، فالتصوير يعبر عن تجربة ذاتية يعمل على صياغتها تشكيل علاقات لغوية محددة تعبر، بدورها، عن رؤية خاصة حيال واقعه المعيش.

تذهب كثير من الدراسات الأدبية إلى النظر إلى الصورة الأدبية على أنها مرادفة للاستعمال البلاغي أو الاستعاري، غير أن نظرة النقد الحديث إلى الصورة قد تجاوز ذلك الاستخدام إلى مجال أكثر رحابة، فالتصوير في الدرس النقدي الجديد بات مشدوداً إلى العلاقات التي تحكم الكلمات والتراكيب في النص الشعري، فالصورة

« بالمعنى الأسلوبى هي تجسيد لعلاقة لغوية بين شيئين » ، والشاعر « يتميز بالحساسية الشديدة والانفعال العميق إزاء المواقف والأحداث، وله رؤيته الجمالية التي تتخطى العلاقات الثابتة المألوفة بين الأشياء إلى عوالم أخرى خفية يشكلها وفق رؤيته الخاصة، وقدرته على الإبداع في تشكيل علاقات جديدة بين الكلمات لتجسد خبرته الفنية، وتعبّر عن حقائق نفسه، ومدى رؤيته الواقع حتى تكون هذه العلاقات الجديدة موازياً رمزياً لواقعه في الحياة، وتلبس تجربته ثوباً جديداً غير مألوف » .<sup>٢</sup>

إذاً، الصورة، واستناداً إلى ما سبق، إطارٌ لغويّ يعبر الشاعر من خلاله عن تجربته الذاتية، غير أنّ القيمة الفنية لتلك الصورة ما تلبث أن تتنامى في العمل الإبداعيّ لتصل إلى مجال الحكم على الشاعر، ومدى براعته التصويرية، وصفاء مخيلته ونقائها، لاسيما عندما تصبح وسيلة للنقل والإيحاء، وأكثر تأثيراً من التعبير المباشر، « فالصورة يمكن استشارتها مرةً على سبيل المجاز، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح، كتقديم وتمثيل على السواء فإنها تغدو رمزاً، قد يصبح جزءاً من منظومة رمزية أو أسطورية » .<sup>٣</sup>

أما البحث، فإنه سيعمد إلى دراسة صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح، بوصف تلك الصورة ركناً رئيساً من بناء منظومة شعره الرمزية، فتلك الصورة لها ارتباط وثيق بالشاعر، ويستطيع الدارس أن يتلمس قدرتها على بث شكواه، ونقل أفكاره ومشاعره، حتى غدا حضورها المتواتر في شعر نُصيب رمزاً يخدم تجربته الخاصة، علماً أنّ تلك الصورة لم تعتمد النظام البلاغي وحسب، بل امتدت، وأمست أكثر اتساعاً لتشمل الوقوف على المفردات والتراكيب التي بات حضورها داخل تشكيلات لغوية من شعره يفتح على تأويلات شتى، « فقد تحمل الكلمة تصويراً، وتؤدي العبارة صورة، دون أن تتوسل بالمجاز أو بغيره من عناصر التصوير، فيرصد الشاعر عناصر واقعه في عبارات تصوّر واقعه وتترجم آماله فيعبر عن تجربته الذاتية بلغة تفاعلت فيها الألفاظ، وأعطت من الإيحاء أبعاداً فنية وظلالاً خاصة نبعت من تركيب الألفاظ، وترتيبها واستخدامها » .<sup>٤</sup>

ولا تنسى الدراسة أن تركز على وحدة التجربة الشعرية في رصد الصورة الكلية لطير الحمام في شعر نُصيب بن رباح، فتلك الوحدة تتأتى من تضافر الصور الجزئية الموثقة هنا وهناك من شعر نُصيب، وصولاً إلى صورة تسهم في إجلاء الصورة الكلية للحمامة؛ والذي تمثل في الكشف عن معاناة الشاعر وألمه انطلاقاً مما يصدره حضور ذلك الطير من حزن وكمد، فكلّ صورة تؤدي « وظيفتها داخل التجربة الشعرية التي هي الصورة الكلية، وذلك بأن تكون الصور الجزئية مساوقة للفكرة العامة أو الشعور العام في القصيدة » .<sup>٥</sup>

وعليه؛ تتحدّد الصورة في البحث على أنها تلك المساحة الخاصة التي يفرد فيها عقل الشاعر أفكاره، والفضاء الذي تهدأ فيه نفسه، « فمقياسها هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة...وكلّ ما نصفها به من جمال وروعة وقوة إنما مرجعه إلى هذا التناسب بينها وبين ما تصوّر من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد » ، فالصورة التي يرسمها الشاعر أفي شعره هي تلك اللغة الحية التي تمررت على

<sup>١</sup> - الصورة الأدبية، فرانسوا مورو، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، دار الينابيع، دمشق، ١٩٩٥م، ص ٢٢.

<sup>٢</sup> - الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، د. علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨١، ص ١٠٥.

<sup>٣</sup> - نظرية الأدب، رينيه ويلك، أوستن وارين، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ص ١٩٧.

<sup>٤</sup> - الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، د. علي إبراهيم أبو زيد، ص ٢٤٥

<sup>٥</sup> - النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٤٤٦.

<sup>٦</sup> - أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٣، ص ٢٤٩\_٢٥٠.

اللغة الساكنة المكرورة الجامدة سبيلاً منه للكشف عن مدلولاتها الحادثة، وعمّا توحيه المفردات من دلالات نفسية محددة.

### الشاعر نُصيب بن رباح:

نُصيب بن رباح: شاعرٌ أمويّ، « (...\_١٠٨هـ) أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل، مقدّم في النسب والمدايح، كان عبداً أسود من سكان البادية، وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان، فأشتراه وأعتقه » .<sup>١</sup>

وجاء في كتاب الأغاني أن نُصيباً كان « من أهل ودان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل بيته، وكان أهل البادية يدعونهُ النَّصيب تقيماً له، ويروون شعره. وكان عفيفاً كبير النفس مقدماً، يجيد مديحهم ومراثيهم » .  
وتذكر رواية أخرى أن « النَّصيب كان ابن نوبيّن سبباً كانا لخزاعة، ثم اشترت سلامة أمّ نصيب امرأة من خزاعة ضمريّة حاملاً بالنَّصيب ما في بطنها » .<sup>٢</sup>

ومهما اختلفت الروايات في تحديد نسب نصيب ومكان نشأته، فإنها تجتمع على أنّ الشاعر من الشعراء الموالي<sup>٣</sup>، وكان عبداً أسود قد تمّ عتقه، وعانى ما عاناه السود في المجتمع بسبب اللون، وقد عكس شعره في كثير من الأمكنة ملامح من ترسبات تلك المعاناة<sup>\*\*</sup>، لكنه في الوقت نفسه، كان يدحض ما يوجهه إليه المجتمع من سخرية من سواده بأسلوب أقرب إلى المنطق والموضوعية، ويعبر هذا الأسلوب في الوقت نفسه عن

١ - معجم الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، لبنان، ط١٧، ٢٠٠٧، ٣١/٨-٣٢.

٢ - أبو الفرج الأصفهاني، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤، (١، ٢٥٨).

٣ - يُنظر الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، (١/٢٥٨).

\* الموالي هم المسلمون من غير العرب والذين قدموا إلى البلاد العربية عبر الفتوحات الإسلامية لبلاد فارس والروم وغيرها، وقد عانوا التفرقة في المجتمع العربي. يُنظر: الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، محمود المقداد، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٨م، ص ٢٥٢.

\*\* يقول نُصيب في شعره :

كُسيب ولم أملك سواداً وتحتة قميص من القوهي بيض بنائقة

القوهي: نسبة إلى قوهستان كورة بين نيسابور وهرات ومنه ثوب قوهي، ويُصنع فيها ثياب بيض. شعره، جمع وتقديم د. داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م، ص١١٠.

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني حادثة زواج نُصيب التي تكشف جزئياتها عن نفسه المؤمنة الرضية المتصالحة مع الذات؛ إذ يقول: « غُلقتُ جارية حمراء فمكثتُ زماناً تمّني بالآباطيل فلما ألححتُ عليها قالت: إليك عني فوالله لكأنك طارق من طوارق الليل! فقلت لها: وأنت والله لكأنك من طوارق النهار. فقالت: ما أظرفك يا أسود! فغازني قولها فقلت لها: هل تدريين ما الظرف؟ إنما الظرف العقل. ثم قالت لي: انصرف حتى أنظر في أمرك، فأرسلتُ إليها هذه الأبيات:

فإن أكَ حالكاً فالمسك أحوى وما لسواد جلدي من دواء  
ولي كرم عن الفحشاء ناء كُبُعد الأرض من جَو السماء  
ومثلي في رجالكم قليلٌ ومثلك ليس يُعدم في النساء  
فتزوجتني». الأغاني، ٢٧٧١-٢٧٨.

شخصيته العاقلة والمؤمنة بتعاليم الإسلام القائمة على المساواة وعدم التفرقة بدافع عنصري بين مسلم وآخر إلا بالتقوى.<sup>i</sup>

### شعر نُصيب بن رباح:

طرق نُصيب في أغراض الشعر كافةً خلا غرض الهجاء، فأما المدح فإنَّ جلَّه قد اقتصر على مدح الخلفاء والولاة من بني أمية؛ لاسيما واليه عبد العزيز بن مروان، وقد امتازت صور المديح في شعره ببساطة الخيال ووضوح التركيب والعبارة<sup>\*</sup>، فنُصيب من العبيد الذين لم يتسنَّ لهم ارتياد مجالس الأدب والاجتماع برؤاده، فضلاً عن أنَّ مديحه لم يرتكز على « التراث الموروث من الشعر العربي... وإنما قال الشعر فطرة ومن سليقة سليمة صافية وخيال شعبي مفرط في الشعبية، فهو أقرب إلى النفسية الشعبية منه إلى نفسية طبقة المختصين بالمدائح الرسمية المعتمدة في رسمها وتأليفها على السماء والتقليد الشعري الموروث » .

وأما الرثاء، فقد وجَّه الشاعر دقةً مرثية نحو الأمويين الذين كان خالص الحبِّ لهم، فهم من أعطى الشاعر مكانته بعد أن كان عبداً فقيراً ذليلاً وهم أولياء نعمته، لذلك جاء رثاؤه صادقاً كمدحه إياهم، ويعبر عن امتنانٍ خالصٍ غير مشوبٍ، كما يصور حزنه بفقدانهم<sup>\*\*</sup>.

وإذا ما وصلنا إلى غرض الغزل فإنَّ من أهمِّ ما يطالعنا به شعره في هذا الغرض هو تلك الرقة التي تصدر عن نفس رهيفة شفيفة، فنُصيب شاعرٌ مرهف الإحساس يفتن بالجمال، لكنه مدركٌ بأنه ليس على الدرجة التي تؤهله للاستمتاع بالحب، فهو لا يملك مقومات الرجل الذي تسعى النساء إلى التعلُّق فيه، وهو يقترب أحياناً من الغزل المادي ولكن بحياء بدون فجور<sup>\*\*\*</sup>

ومهما يكن من أمر، فقد شغل حديث نُصيب عن المرأة حيناً يسيراً من شعره، وكأنه يعوِّض في فنِّه عما يفتقده في حياته الواقعية من تأكيد الذات وجنوح إلى إثبات القدرة والرجولة.

وأما سبب انصرافه عن الخوض في غرض الهجاء فالأمر عائدٌ في طبيعة الحال إلى ضعف الشاعر وهشاشة منبته، وإلى إدراكه مكانته الوضيعة في المجتمع الأموي الذي يتناسب باطراد مع قوة الانتماء إلى قبيلة أو عشيرة، وأتى لنُصيب تلك المكانة وهو العبد الأسود، وعندما كان يُسأل عن سبب امتناعه عن الهجاء كان

\* يقول في مدح واليه عبد العزيز بن مروان:

لعبد العزيز على قومه      وغيرهم نَعَمَ ظاهره  
فبأبِكَ أَلَيْنُ أبوابهم      وداركُ مأهولةً عامره

وكلُّكَ أَرَأْفُ بالزائرين      من الأمِّ على ابنتها الزائره. شعره، ص ٩٩

١ - شعر نُصيب بن رباح، جمع وتقديم داود سليم، ص ٢٥.

\*\* يقول في رثاء عبد العزيز بن مروان:

أُصِبت يوم الصعيد من سُكر      مصيبةٌ ليس لي بها قبيل  
تالله أنسى مصيبي أبداً      ما أسمعني أنينها الإبل  
ولا التبكي عليه أَعولُه      كلُّ المصيبات بعده جلل

شعره، ص ١١٣

\*\*\* يقول:

كأنَّ على أنيابها الخمر شابها      بماء الندى في آخر الليل غابق  
وما ذقتُه إلا بعيني تفرُّساً      كما شيم من أعلى السحابة بارق

شعره، ص ١٠٨.

ردّه ينمُّ على موضوعية وحكمة تحلّى بهما الشاعر، كما يدلُّ على امتلاكه نفساً متعلّقة ومدركة مكانتها في ذلك المجتمع، فقد قيل له مرّة: « أنت لا تحسن الهجاء، فقال : بلى والله، أتراني لا أحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزلك الله؟ قال: فإنّ فلاناً قد مدحته فحرمك فاهجّه، قال: لا والله ما ينبغي أن أهجوه، وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته» .

وأما صورة طير الحمام، فهي من الصور التي كان حضورها متواتراً في شعر نُصيب، وتندرج ضمن أغراض شتى من ذلك الشعر كالمح والغلز، لذا ستحاول الدراسة أن تقف على تجليات تلك الصورة لعلها تسهم في سبر أغوار الشاعر، وتفلح في الوصول إلى ما تضره تلك الشخصية العاقلة المتزنة من كثير من التناقضات والتجاذبات.

### صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رباح:

حفل الشعر العربي بصورة طير الحمام منذ الجاهلية، وبهذا فإن صورته لم تكن جديدة في الشعر الأموي، بل هي صورة بدوية دون ريب ، غير أن صورة الحمام شهدت اهتماماً ملحوظاً وعناية أكثر من ذي قبل في القصيدة الأموية مع بداية العصر الأموي، وربما يعود السبب في ذلك إلى طبيعة الحياة الأموية الجديدة، « فيبدو أن الحواضر التي تكاثفت فيها البيوت وانتشرت حولها الأرياض والحدائق ساعدت على تكاثر الحمام فيها كما أن الحمام في حرم مكة التي أصبحت مركز الفن وملقى الشعراء كان ظاهرة بارزة تترك أثرها في نفوسهم وهم يراقبونه ويسمعون هديره وسرعان ما أصبحت تربية الحمام هواية وأصبح الحمام يصاد لبيع للذين يعتنون به» .

ولعل صورة الحمام من أكثر صور الحيوان التي ارتكز عليها نُصيب في شعره ، ربما لتناسب هذا الطير الذي يحمل بين جوانحه حزناً أبدياً، مع نفس الشاعر المولى الكميدة، وروحه الحزينة ، إذ راح يدكّر ذلك الطير اغترابه في المجتمع الجديد ، و يهيج عنده مشاعر الشوق، والكآبة، والحزن ، وقد جاء الحكم على حزن الحمام منذ القديم، إذ « ادعت الأعراب أن فرخ حمام كان على عهد نوح يقال له الهديل صاده بعض جوارح الطير، فيزعمون أنه ما من حمامة إلا وهي تبكي عليه» .

وقد تعود أسباب الاهتمام بهذا الطير وتكريمه في مكة بعد الإسلام إلى اعتقادهم أن الحمام « من نسل الحمامة التي عششت على باب الغار الذي لجأ إليه الرسول الكريم(ص) عندما ائتمرت عليه قريش واعترمت الفتك به، فأوصى الله سبحانه وتعالى إلى الحمام فجاءت على أثر دخول الرسول(ص) فعششت على بابه فأيقنت قريش أنه قديم وقالوا: لو أنّ محمداً دخل هذا لما بقي عش الحمامة قائماً في فجوته » .

١ - الأغاني، ٢٧١١.

٢ - يُنظر الحيوان في الشعر الجاهلي، حسين جمعة، دار دانية للطباعة ، دمشق ، بيروت ، ط١، ١٩٨٩، ص٧٣.

٣ - شعر نُصيب بن رباح، داود سلوم ، ص٣٧.

٤ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، الأمدي، تحقيق السيد أحمد صقر ،دار المعارف ، مصر ، ط٥ ، ١٤٨/٢.

٥ - تربية الحمام، عبد الكريم فهمي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م، ص١٨٠.

ومهما يكن من أمر، فقد عُرف الحمام في الشعر العربي، وأثار لدى الشعراء لواعج الحزن والأسى، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر المولى نُصيب بن رباح الذي أفاض في شعره بحديثه عن الحمام، إذ يقول في واحدة من هذه الأشعار:

ويوم اللوى أبكاك نوح حمامة  
فقلت أتبكي ذات طوقٍ تذكرت  
وأدري ولا أبكي وتبكي وما درت  
ولم ترَ ما تبكي وأترك ما أرى  
هتوف الضحى بالنوح ظلت تفجع  
هدياً وقد أودى وما كان تُبع  
بعولتها غير البكى كيف تصنع  
وتحفظ ما تبكي له وأضيع

ترتسم صورة طير الحمام في النص السابق من خلال مجموعة دوالٍ تسهم في تعيين أبعاد الصورة الكلية لمشهد الحمامة، وتحديد دلالاته، وعلى الرغم من أن نوح الحمامة يشكل البعد الأهم في تلك الصورة، يعتمد الشاعر إلى تقديم عناصر رديفة إلى هذا النواح من شأنها أن تساعد في نضج الصورة واكتمالها، وذلك في التركيز على إرساخ قرائن لغوية راحت تصبّ دلالاتها في معاني الحزن والفقد، فالشاعر منذ بداية الأبيات يعتمد المناجاة - بدءاً من قوله: فقلت - سبيلاً إلى إسقاط عناصر صورة طير الحمام على نفسه، ولاسيما أنه ارتكز، في مونولوجه الداخلي، على ألفاظ لم تخرج من دائرة الحزن، من مثل قوله: ( أبكاك، نوح، النواح، تفجع، أتبكي، وأدري ولا أبكي، وتبكي وما درت، بعولتها، غير البكى، لم ترَ ما تبكي، تحفظ ما تبكي )، فكلٌّ من هذه القرائن اللغوية صورٌ جزئيةٌ عملت على خدمة الصورة الكلية، ما أسهم في تكثيف الرؤية لاستنباط موقف الشاعر الفكري، ومقاربتة في الأبيات.

لقد أثار صوت الحمامة منذ البداية عاطفة الشاعر، فأيقظ لديه مشاعر الحزن والحنين، والحمامة إذ تبكي إلفها تستدعي لدى نصيب الإحساس بالفقد والحرمان، « فصوت الحزن هو اللغة المشتركة المعهودة بين الحمام، فهو الذي يثير تألف كلِّ الحمام والنقاء روحاً حتى لو لم يكن جسداً... وهذا ما جعل الشاعر يلتقي مع الحمام في الوضع الروحي »، من هنا نلاحظ أنه تولّد نوعٌ من الانسجام النفسي بين الشاعر وطير الحمام، وعلى هذا تغدو الصورة الكلية للحمامة في النص السابق، المنفد الذي سمح لنا بالتسلل إلى حزن الشاعر، فكشفت لنا بدورها عن ضعفه وخوفه، ومعاناته التي ترجع معظم أسبابها إلى عوامل اجتماعية وحياتية خاصة به.

وفي صورة أخرى يكشف لنا نُصيب عمق هذه المعاناة بعد أن توسّل بطير الحمام في الإفصاح عنها،

إذ يقول:

كأن القلب ليلة قبل يغدى  
قطاة عرّها شرك فباتت  
لها فرخان قد تُركا بوكر  
إذا سمعا هبوب الريح نصا  
بليلى العامرية أو يُراح  
تجاذبه وقد علق الجناح  
فعضهما تصفقه الزياح  
وقد أودى به القدر المتاح

١ شعر نصيب بن رباح، داود سلوم، ص٢٠٢. أودى: مات. الهديل: نوح الحمام وهنا فرخه. تتع: ملك قديم من ملوك حمير. العولة: البكاء.

٢ - الطير وعالمه الحيواني في الشعر الجاهلي، عبد القادر الرباعي، مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٣١، ١ ديسمبر، ١٩٨٦م، ص١٠٤.

٣ - شعر نصيب بن رباح، داود سلوم، ص٧٤. عرّها: حبسها. الشرك: الفخ. نصا: نصبا أعناقهما.

فلا في الليل نالت ما ترجي ولا في الصبح كان لها براح

يلفت الألم المشهدَ التصويريَّ السابق، فالشاعر يتمثل أوجاعه في الحب إثر مفارقتها محبوبته بقطة\* وقعت في شرك لم تستطع الخلاص منه، وقد تركت خلفها صغيرين في عشٍ ينتظران أوبتها بدون جدوى، ففساوة القدر تحول دون اجتماع تلك القطاة بصغيريها، وبذا، فإن تجربة الطير في المعاناة تستوي مقابلاً فنياً لمعاناة الشاعر ووجعه وقلقه وحرمانه.

لقد آذن ربط الشاعر المفتوح النصي لأبياته بأداة التشبيه (كأن)، بجعل ذلك الطير المحرك الرئيس للدلالة النصية في أبياته، وبهيمنة هذه القطاة على محاور النص الرئيسية بعد تغييب الشاعر كلياً؛ والذي تماهى بدوره مع هذه القطاة، فدلت حالها على حاله، وتعيّنت تجربتها للتعبير عن تجربته، ولهذا دلالاته التي تفتح على كون هذا الطير كثيراً ما كان يثير لدى الشعراء لواعج الحزن والأسى من جهة، وأنه كان « يمثل اتصالاً فريداً لهم بالحيوان حتى اكتسب لديهم مظهراً إنسانياً فجعلوه موطن تفتحهم » من جهة ثانية، لذلك ارتبط ذكره بالمشاعر الصادقة، ولاسيما كل ما يتعلق بلوعة البعد والفراق تماماً كما حدث في أبيات نصيب السابقة.

٢

وها هو ذا يقول في حمامة وقد أثار غناؤها حزن الشاعر :

لَقَدْ كِدْتُ تَبْكِي أَنْ تَعْنَتْ حَمَامَةً      عَلَى رَأْدَةِ الْأَفْئَانِ نَاعِمَةً الْأَصْلِ  
تَهْرُ بِهَا الرِّيحُ الضَّعِيفَةُ غُضْنَهَا      مِرَاراً فَتُنْدِي فَرْعَهَا ثُمَّ تَسْتَعْلِي  
بِهَائِقَةٍ لَا تَبْرُحُ الدَّهْرَ وَالْهَاءُ      عَلَى إِثْرِ الْإِفِّ أَوْ تَتَوَخَّ عَلَى شَكْلِ

تسجع الحمامة في أبيات نصيب على أغصان ناعمة تغري الريح طراوتها ، وليئها ، حتى تكاد لا تبرحها نسماها التي تخفضها حيناً ، وترفعها حيناً آخر .

إن المشهد التصويري لأضطراب الحمامة على تلك الأغصان يبنى بحالة قلق الشاعر ، كما ينم في الوقت نفسه على الأسس الواهية التي يرتكز عليها نصيب في علاقته بالمرأة ، إذ يتهدد هذه العلاقة الفشل والإخفاق باستمرار كما يتضح لنا من قراءة جل شعره .

تبدو شخصية نصيب خارج إطار المرأة أشد قوة وصلابة ، إذ إن أكثر ما يميزها تصالح الذات مع الشكل ، ومعرفتها حجمها ، وماذا تبغي في حياتها ، وكيف تحصل على ما تريد ؟ وقد أطلعتنا مصادر عديدة على سعي نصيب الحثيث والشاق من أجل الحصول على حريته بوصفه العبد الأسود، وقد استطاع أن ينال مراده بعد معاناة مريرة مع العبودية<sup>(١)</sup> ، إذ كان يأمل من هذه الحرية أن يؤمن لنفسه صوتاً اجتماعياً كسائر الموالى في دولة العرب الإسلامية ، وقد منحت تلك الحرية الشاعر شيئاً من المكانة الاجتماعية المرتقبة، بيد أنها لم تقرب المرأة منه ، إذ بقي نسبه غير العربي ، وسواد لونه يحولان دون أن يكون الفارس الذي يستحوذ

\* القطاة : واحدة القطا، وهو نوع من الحمام.

١ - الحيوان في الشعر الجاهلي، حسين جمعة، ص ١١٧

٢ شعر نصيب بن رباح، ص ١١٩.

٣ - ينظر الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ٢٥٨١١.

على اهتمام النساء ، وأحلامهنّ ، فغدا هذا الفشل العاطفي بمنزلة العبودية في نظره ، كما شكّل سبباً مهماً في قلقه ، وحرزته ، تماماً كهذه الحمامة التي كان يراها تمثل معادلاً موضوعياً له ، فهي فاقدة قرينها ، وهو فاقده أنتاه، فلا تغرّنا تلك الصورة الخارجية للحمامة فننظر إليها على أنها مشهد ماديّ وحسب، فالوصف الخارجي عليه ألا يلهينا عن وصف المشاعر الداخلية للشاعر واستقصائها، « وإنما هو شيءٌ خارجيٌّ يستعين به على إيضاح الجوّ الداخلي، ويتلقاه مما يرمي به إليه العالم الخارجي حين ينظر فيه » .  
ونراه يقول في حمامة، وقد جعلته متأثراً بها:

وَقَدْ هَاجَنِي لِلشُّوقِ نُوْحُ حَمَامَةٍ  
طُرُوبٍ غَدَّتْ مِنْ حَيْثُ بَاتَتْ فَبَاكَرَتْ  
تَغَنَّتْ عَلَيْهِ ذَاتُ شَجْوٍ مُرْنَةً  
هُتُوفِ الضُّحَى هَاجَتْ حَمَامًا فَعَرَّدَا  
بِعَوْلَتِهَا غُصْنًا مِنَ الْأَثَلِ أَغْيَدَا  
بِصَوْتِ يَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ الْمُصِيدَا

إن حزن الحمامة كما تقول الأسطورة قديم، ودفين، ويعبر عنه صوتها، فإذا ما غنت، فإن في غنائها " ما يشجوك فيحزنك، وما يسرك فيطربك، ولهذا جعلوا نوح الحمام تفجعاً، وسموه غناءً، وبكاء في حال واحدة" .  
والشاعر نُصيب بن رباح يخفي حزناً دفيناً في أعماقه ، لعل أحد أسبابه يعود إلى حالة الاضطراب التي تسيطر على علاقته بالأنثى، إذ كثيراً ما شكل وجودها في حياته حلماً عاش الشاعر لأجله، فحاكى نوح الحمامة في القصيدة السابقة ما يعتمل في داخله من أسى، وحزن، بسبب غياب المرأة، وكأنّ هناك حالة تشابه بينهما، فالحمامة تتوح على قرينها الذي فقدته منذ زمن، ونُصيب يبكي المرأة التي فشل في العثور عليها في دنياه.

وقد دلّ على حالة غياب المرأة عن الشاعر، من ناحية أخرى، اسم المفعول في كلمتي: المستهَام، والمُصِيدَا، اللتين أظهرتا الشاعر مسلوب الإرادة، وضعيفاً، فإن حال امرئ قد اصطادته شباك حب، فأبقتة أسيراً لها، لا تحرره من قيودها، هي حال حمامة لا تزال إلى اليوم تناجي قرينها الضائع.

لقد ارتبط طير الحمام في القصيدة العربية، لاسيما الغزلية منها، بمعاني الصبابة والهيام، وبذا فإن ذكره لا بدّ أن يحيل على موضوع العشق، كما أن التفصيلات الدقيقة لذلك الطير كثيراً ما كانت تشكّل محوراً رئيساً من محاور تجربة العشق هذه وما تفتح عليه من قرائن الحزن والفقد، « فقد اكتسبت الحمامة جانباً عاطفياً خاصاً » في القصيدة العربية بصورة عامة، و«الوله الذي يغطي على صداحها، شيءٌ من صميم حياة الشاعر، من صميم الأحداث التي مرت به...وليس شجوها إلا شجوه. إنها تمثله في بعض المواقف، وترمز إلى وضعه في بعض المواقف الأخرى، وتشير إلى معاني الأنثى في نفسه في حين ثالث » .

وقد برزت مشكلة الفقد عند نصيب في قصيدة أخرى يذكر فيها الحمامة إذ يقول:

١ - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٦، ١٩٨٣م، ص٢٤٩.

٢ - شعره، ص٨٥ ، هتوف الضحى: تغرد وتهتف عند الضحى، الأعيد: المائل أو الناعم،

٣ - الموازنة، الأمدي، ١٥٠/٢.

٤ - الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، دار الإرشاد للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٧٠م، ص١٨٩.

٥ - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، شكري فيصل، ص٢٤٨.

٦ - شعر نُصيب بن رباح، ص١٢٤. جُنح: في وقت من الليل، وهناً: نصف الليل أو بعده، ذو صبابة: ذو شوق.

لَقَدْ هَمَّتْ فِي جُنْحِ لَيْلِ حَمَامَةٍ      عَلَى فَنَنِ وَهْنًا وَإِي لَنَائِمٍ  
 قُلْتُ اعْتِدَارًا عِنْدَ ذَلِكَ وَإِنِّي      لِنَفْسِي مِمَّا قَدْ رَأَتْهُ لَنَائِمٍ  
 أَرُغِمُ أَنِّي هَائِمٌ نُؤُ صَبَابَةٍ      لِسُعْدَى وَلَا أَبْكَى وَتَبْكِي الْحَمَائِمِ  
 كَذَّبْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ لَوْ كُنْتُ عَاشِقًا      لِمَا سَبَقْتَنِي بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمِ

يبدو الشاعر في الأبيات خجلاً من نفسه التي تظن أنها تعرف الحب، إذ إن صوت الحمامة الحزين جعله يدرك أن الحمامة أعرف منه في شؤون المحبين، وفي الإخلاص للمحبيب.

لقد أيقظ نوح الحمامة على فرخها، وحزنها الأبدي عليه مشكلات كانت مترسبة في أعماق الشاعر، وهذا ما يفسر تلك العلاقة الحميمة بين الشاعر، والحمام، وذكره إياه مرات كثيرة في ديوانه، وربما كانت إحدى تلك المشكلات حرمانه من المرأة، إذ يرى أن الحمامة تشبهه تماماً، فهو مفجوع مثلها، وفاقد قرينه، ولكنه على الرغم من هذا لا يبكي، ويستطيع أن ينام في الليل، وهنا تبرز المشكلة الثانية، وهي اعتياد الشاعر على فقدان المحبوبة من حياته، على الرغم من ألمه الكبير بشأن هذا الفقد.

ولعل التشابه بين حال الشاعر، وطير الحمام، جعله يشعر بالضعف، والعجز، فأحس بأنه أصبح تلك الحمامة التي تتوح على فرخها في الليل، فأراد أن يتخلص من هذا الضعف، بأن جعل الحمامة أوفى منه، فبدا وكأنه هو الذي أهمل المحبوبة، فلذلك لا يبكي عليها.

يسترعي القارئ لشعر نُصِيب في الحمام، إلحاحه على إشراك الطبيعة في الكشف عن كثير من مكونات نفسه عبر مظاهرها الحية، فطير الحمام « يعبر عن ارتباط الشاعر بالطبيعة كحال معظم شعراء بني أمية، ورغبته في أن تشاركه مظاهرها تجربته في الحب والمعاناة »، وهو بذلك ينفذ من عناصر الطبيعة للبوح بما تكنه الذات من أوجاع وآلام، فقد اعتاد الشعراء على مر العصور أن يلجؤوا إلى الطبيعة عند بث شكواهم والحديث عن واقعهم، « وما الطبيعة الحية إلا نمط من هذا الواقع تحكي حكاياهم الأصيلة، وترسم مواقفهم الفكرية والاجتماعية في منظور قصصي حزين أبطالها من الحيوانات ومادتها مزيج من عالمه وعالم الإنسان، وبهذا غدت أنماطاً متفردة تدخل أعماق الذات وتتبئ بصدق مشاعر أصحابها دون تكلف، وصارت مواقف فكرية وإن ظهرت مرتجلة وفطرية » .

وعطفاً على ما سبق، فقد حاول نُصِيب في الأبيات السابقة أن يتفوق على الحمامة عندما أظهرها أوفى منه، وأضعف أيضاً، وبذلك شكّل له هذا المخلوق الضعيف فرصة ليعيد ثقته بنفسه، ويشعر بالقوة، في عالم الحب، وذلك بأن وجد مَنْ هو أضعف منه في حبه.

ولا نعرف إن كانت مسألة الوفاء هي مشكلة أخرى عند الشاعر، فجرها نوح الحمامة، إذ استرعى انتباهه وفاء تلك الحمامة المخلصة لفرخها، على الرغم من أن زمناً طويلاً قد مضى على فقدانه، فبدا هذا الاستغراب نابعاً من يقين لديه بعدم وفاء الأنثى، وهذا ما كان يجعله غير واثق بها، وقد رأينا في أمكنة عديدة من شعره

١ - شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، دار المعارف، مصر، ط٢، دون تاريخ، ص١٢٧-١٢٨.

٢ - الحيوان في الشعر الجاهلي، حسين جمعة، ص٩٠.

مترقباً غدر امرأته التي تربطه بها علاقة حب، وانطلاقاً من قلة ثقته بأنثاه، فقد نفى عن النساء صفة الوفاء بصورة عامة، وجعل الحمامة نموذجاً مثالياً في الإخلاص، والوفاء.

وإذا كان نُصيب في هذه القصيدة قد جعل الحمامة أوفى منه، ومن بني البشر، لنواحيها المستمر على قرينها، فإننا نراه في قصيدته الآتية يشعر بالندم على سبقها إياه في البكاء، إذ يقول:

وَنَبَّهَ شَوْقِي بَعْدَ مَا كُنْتُ نَائِماً	هَتُوفُ الصُّحَى مَشْغُوفَةٌ	بِالْتَرْتُّمِ
مَحَلَّةٌ طَوْقٍ كَانَ مِنْ غَيْرِ شَرِيَّةٍ	بِمَالٍ وَلَمْ تَعْرَمْ لَهُ جَعْلٌ	دَرْهَمِ
أُمُوتٌ لِمُبْكَاهَا أَسَى أَنْ لَوْعَتِي	وَوَجِدِي بِسُعْدَى شَجْوَهُ غَيْرِ	مَنْجَمِ
بَكَّتْ شَجْوَهَا تَحْتَ الدُّجَى فَتَسَاجَمْتُ	إِلَيْهَا غَرُوبُ الدَّمْعِ فِي كَلِّ	مَسْجَمِ
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بِكَيْتُ صَبَابَةٌ	بِسُعْدَى شَفِيَتْ النَّفْسَ قَبْلَ	التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكْتُ قَبْلِي فَهَيِّجْ لِي الْبُكَاءَ	بُكَاهَا فُقُلْتُ الْفَضْلُ	لِلْمُنْتَدِمِ

يقول الشاعر في بداية القصيدة: نبّه شوقي، فنفهم من هذا التركيب أن الشاعر مشتاق، وهذا الاشتياق ينم على حرمانه من المحبوبة، فهو يعاني بعدها عنه، وبذلك فإن حاله تشبه حال الحمامة التي ذكره صوتها بمحبوبته الغائبة.

وإذا كان نُصيب قد سعى جاهداً في قصيدة سابقة إلى تقليص حالة الشبه بينه وبين الحمامة، هرباً من ضعفه الذي ذكرته به، فإننا نراه في هذه القصيدة يظهر ضعفه، دون أية محاولة للتواري خلفه، لا بل إنه لشدة حزنه يحس بأنه قادر على التفوق على الحمامة في البكاء، ففقده محبوبته يجعله يشعر بأنه أكثر حزناً من الحمامة نفسها، والتي تبكي قرينها منذ زمن.

لقد أعلن الشاعر في هذه القصيدة ضعفه بصورة صريحة، فبدا حزناً، ومتألماً لغياب المحبوبة، ومستسلماً لكأبته، وسوداويته، ولعلنا قلنا آنفاً: إنّ الحب وجه آخر من وجوه القدرة، والقوة عند نُصيب، وغيابه سيفقده تلك القوة، وسيجعله يبدو ضعيفاً، وهذا ما أحسّ الشاعر به، فجعله يتحد والحمامة في بوتقة واحدة. وقد استعان الشاعر بالفعل (بكى) ليدل على عظمة حزنه، فقد قال: بكت، مبكاه، بكيت، البكا، بكاه، لعلّ البكاء ينشر في نفسه الراحة، ويغسل ما علق على روحه من يأس وكآبة.

لقد بات واضحاً، وفي شيء لا يدعو إلى الشك بأن الصلة متينة بين ذكر طير الحمام وموضوع العشق، إذ نلاحظ في جميع الأبيات التي تمّ عرضها لنُصيب أن رمز الحمام لا يوحي إلا بأجواء الحزن والألم، وهذا كان ديدن الشعراء العذريين في كثير من أشعارهم، وهي أن اتخذوا من الحمام رمزاً يعبرون من خلاله عن أشجانهم، حتى بات يشكل ظاهرة بارزة في شعرهم.

ولعلنا لا نجانب الصواب لو نظرنا إلى تلك الظاهرة على أنها ظاهرة جديدة في أدبنا العربي القديم، إذ لم يكن « اتخذ الحمام رمزاً للفقء والوفاء والاهتزاز لصوتها الشجيّ جديداً على الشعر العربي، ولكن الجديد في هذا

<sup>1</sup> - شعر نُصيب بن رباح، ص ١٣٠، شرية: شراء، جعل درهم؛ مقدار درهم، غير منجم؛ غير منقطع على فترات، تساجمت إليها: سالت وجرت .

الشعر استغراقه في رسم هذه الصورة المجسّمة، وبهذا الإحساس المرهف الذي أحسه الشاعر في شجو الحمام من حزن لم يره في صوت مخزون من قبل ومن أحوال يثير حنين الإبل لو سمعته » .<sup>١</sup>

ولكن السؤال ههنا: هل استطاع نصيب أن يقدم جديداً إلى تلك الصورة؟ واستناداً إلى قراءتنا لهذا الشعر قد نستطيع القول: لقد حافظ حضور الحمام في شعر نصيب بن رباح على أبعاده الموضوعية والرمزية التي حفل بها موروثنا الشعري القديم، وربما في هذا ما يؤكد انخراط الشاعر في عوامل التأثير والتأثير بمن سبقه من الأسلاف، والإفادة من التراث في تشكيل الصورة الشعرية التي شكّلت صورة طير الحمام مظهراً بارزاً من مظاهرها، غير أن الشاعر لم يطرح صورته بجدة تتجاوز الموروث التقليدي ، ولم ينأ بتلك الصور عن الشائع والمألوف، الأمر الذي يجعل عملية التطور الأدبي لديه محكومة بالصورة النمطية، ولا يكسب صورة طير الحمام عمقاً وبعداً جديدين في شعره، ولم تتريا النصّ الأمويّ بإبداع حادّ جديد.

ونستمع إليه في أبيات أخرى مؤكداً بكاءه الذي هاجه نوح الحمامة:<sup>٢</sup>

لعلك باكٍ إن تَعَنَّتْ حمامةً      يميذُ بها غصنٌ من الريح مائلٌ  
من الورق يدعوها إلى شجوها الضحَى      فتبكي وتبكي حين تدنو الأصائل

يستحضر صوت الحمامة الحزين في ذاكرة نصيب، قصة حرمانه من المرأة التي يحبها، وعذابه الذي لاقاه بفعل ذلك الحب، فقد بدت الحمامة صورة الشاعر، فصوّر غناؤها الحزين ما تعتريه نفسه من كآبة وأسى.

ولعل صورة العذاب التي واجهها الشاعر في تلك العلاقة، ماثلة أمامنا بشكل واضح، استطعنا أن نتلمسها من خلال وقوف الحمامة على غصن مائل تحركه الريح كيفما شاءت ، إذ إننا لو تخيلنا المشهد، أدركنا أن الحمامة تحاول جاهدة التمسك بهذا الغصن، ولكن الريح تنغص ثباتها ، وتمنعها من الاستقرار، فتصبح أكثر قلقاً، وعرضة للاضطراب، وربما كان قلق تلك الحمامة، انعكاساً لقلق الشاعر نفسه، ولألمه، فكل الأمكنة بعد رحيل المحبوبة، لم تعد تشعره بالراحة، والأمان.

وإذا كان المكان قد عجز في منح الشاعر الطمأنينة، فإن الزمان لم يرحمه أيضاً في نسيان محبوبته، وقد عبر عن ذلك من خلال استمرار الحمامة في البكاء دون انقطاع، فلا طلوع شمس يوم جديد يجلي حزنها على فرخها، ولا مغيب تلك الشمس يحمل معه الفرح، والخلاص.

إذاً استطاع نصيب أن يضمّ إلى قلق المكان في أبياته قلق الزمان، وهو ما ينمّ على قلق عام يعانیه الشاعر في حياته، وبذا فإنّ صورة الحمام لم تعد تعبر عن عذاب الحب وقوة الحنين وحسب، بل امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك، ففضلاً عن كون ذلك الطير رمزاً للألفة والوفاء ، بات يشكل صورة من صور الانتماء إلى المكان وعلاقته به، فالطبيعة بتجلياتها المختلفة تسهم في تصوير علاقة المرء بفضائه الجغرافي، ولطالما كان هناك ترابط وثيق بين اتساع المكان العالمي وعمق المكان الداخلي ، فهذا الغصن المضطرب الذي تقف

<sup>١</sup> - في الشعر الإسلامي والأموي، عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٩٠.

<sup>٢</sup> - شعر نصيب بن رباح، ص١١٦، الأصائل: مفرد أصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب.

<sup>٣</sup> - يُنظر جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٤، ط١٩٩٦م، ص١٨٦.

عليه الحمامة، يخفي وراءه اضطراباً توجيه تلك الصورة بعلاقة الشاعر بالمكان، وكل الذي تمر به الحمامة من قلق وتوتر هي في الأصل صورة الشاعر نفسه ألبسها لذلك الطير.

وتتكرر تلك الصورة للحمامة المضطربة في أكثر من موضع في شعره، إذ يقول في مكان آخر:  
ويوم ذي سلمٍ شأقتك نائحةً  
ورقاء في فننٍ والريحُ تضطربُ

ومهما يكن من أمر، فإن نصيب بن رباح قد اتخذ من صورة طير الحمام ملاذاً يلجأ إليه، بوصفه جزءاً من الطبيعة الحية، وقد أفلح حديثه عن هذا الطير في الإفصاح عن مكوناته، واستنباط رؤى جديدة برزت معها علاقة الشاعر بالمكان والزمان، لتستقر النفس من خلال ذلك الحديث وتفصيلاته المتنوعة.

**الخاتمة:**

شكلت صورة طير الحمام في شعر نُصيب بن رياح فرصة مواتية للولوج إلى عالم الشاعر الداخلي، فأسهمت في إماطة اللثام عن تلك الشخصية التي ما فتئت تتستر وراء تلك القرائن الفنية للبحر بكمدها وحزنها؛ واللذين تعانیهما في الحياة، فحضور طير الحمام المكثف في شعر نُصيب لم يكن عبثاً أو مصادفة، بل كان محطة تلاقي فيها البعد النفسي المتصل بنواح الحمامة مع مثيله لدى الشاعر، بوصف ذلك الطير ملهم الشعراء، ومبعثهم على الحزن والألم.

كشفت صورة طير الحمام لدى نُصيب في شعره عن هشاشة علاقة الشاعر بالأنثى بصورة عامة، فكثيراً ما كان غاؤها رمزاً لديمومة حبه وقوة حنينه، وكثيراً ما كان الهديل المفقود أو القرين الغائب في شعره بديلاً رمزياً للمرأة التي حلم الشاعر بإقامة علاقة مكنية معها، ولعلّ هذا ما يعود ويفتح على الألم والحزن في حياة الشاعر، انطلاقاً من أن وصف طير الحمام شكّل وحدةً فنيةً من وحدات غرض الغزل كما شاع في الشعر العربي بصورة عامة، غير أنّ هذه الوحدة لم تحمُ إلا في أجواء الحزن والفقد والألم.

عكست صورة طير الحمام في شعر نُصيب عن علاقة الشاعر بالطبيعة، بوصف الحمام عنصراً من عناصر الطبيعة الحية والحيوان، وفي هذا ما ينمّ على محاولات نُصيب في شخصنة الطير وأنسنته، وتشكيله في الوقت نفسه بديلاً من الإنسان والرفيق والمصاحب.

لم يستطع نصيب بن رياح أن يقدم إمكانات فنية تبرز مقدرته اللغوية من خلال صورة طير الحمام، فالشاعر قد خاض في تقليد شعري أفاد فيه من شعراء سابقين كانوا قد أبدعوا في الحديث عن طير الحمام قبله، ولم يقم جديداً في هذا المجال، وظلّ يحوم في دائرة السلف، فجاءت تجربته بسيطة يحكمها التكرار والوضوح، وتتأى عن اجترار خطوط جديدة في ذلك التقليد، ما أدى إلى تقييد العملية الفنية في شعره، وانحسار الوظيفة الشعرية فيه.

مكنت صورة طير الحمام في شعر نصيب؛ وخاصةً في صورها الحركية، من الكشف عن قلق واضطراب يعانیهما الشاعر في علاقته بالمكان والزمان، ولعلّ هذا ما يدور في جملة ما عبرت عنه تلك الصورة من مشاركة وجدانية بين الشاعر وطير الحمام بصورة عامة.

## المصادر والمراجع :

- ١- أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٨، ١٩٧٣م.
- ٢- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ ، ١٩٩٤.
- ٣- تربية الحمام: عبد الكريم فهمي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.
- ٤- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٦، ١٩٨٣م.
- ٥- جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٦م.
- ٦- الحيوان في الشعر الجاهلي: حسين جمعة، دار دانية للطباعة ، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- ٧- شعر الطبيعة في الأدب العربي: سيد نوفل، دار المعارف، مصر، ط٢، دون تاريخ.
- ٨- شعر نصيب بن رباح: جمع وتقديم داود سلوم، مطبعة الإرشاد، العراق، بغداد، ١٩٦٧.
- ٩- الصورة الأدبية: فرانسوا مورو، ترجمة علي نجيب إبراهيم، دار الينايبع، دمشق، ١٩٩٥م.
- ١٠- الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي: علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ م .
- ١١- الطبيعة في الشعر الجاهلي: نوري حمودي القيسي، دار الإرشاد للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.
- ١٢- الطير وعالمه الحيواني في الشعر الجاهلي: عبد القادر الرباعي، مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٣١، ديسمبر، ١٩٨٦.
- ١٣- في الشعر الإسلامي والأموي: عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ١٤- معجم الأعلام، خير الدين الزركلي: دار العلم للملايين، لبنان، ط١٧، ٢٠٠٧م.
- ١٥- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: الأمدي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٥.
- ١٦- الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي: محمود المقداد، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.
- ١٧- نظرية الأدب، رينيه ويلك: أوستن وارين، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
- ١٨- النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.